تغلغل النّفوذ البريطاني في فلسطين (1840-1914) وآثاره الاجتماعيّة

أ. مرام رشدي أبو مخ

طالبة دكتوراة في قسم التاريخ، جامعة النجاح الوطنية – نابلس – فلسطين

تاريخ الإرسال 02 فيفري 2024 تاريخ القبول 24 مارس 2024

ملخص:

في مطلع القرن التاسع عشر اشتد تنافس الدول الأوروبية على توسيع نفوذها في فلسطين، وتضاعف هذا التنافس مع نشوء ما عرف بالمسألة الشرقية، التي سعت فيها الدول الأوروبية لتقسيم أملاك الدولة العثمانية اثر ضعفها السياسي والعسكري، وكان لبريطانيا مطامع في المنطقة وعلى رأسها توطين اليهود في فلسطين، حتى بدأ مشروع استيطانها من خلال التغلغل في فلسطين وبسط نفوذها عبر المشاريع الاستيطانية وتنفيذها وتأثيرها في البنى الاجتماعية، وذلك في أواخر الحكم العثماني، حيث سعت بريطانيا الى تفكيك بنية المجتمع الفلسطيني الذي كان يخضع لسلطة الدولة العثمانية، والمقسم إدارياً الى ثلاثة سناجق*[1]: القدس، نابلس، عكا، وذلك من خلال توغلها فيه لينسجم مع مصالحها وأطماعها في فرض نموذج رأسمالي واجتماعي جديد يمكن من خلاله تفكيك بنية المجتمع الأصلية، تمهيداً لبسط نفوذها وهيمنتها السياسية والاقتصادية والإدارية...

كلمات مفتاحيّة: تغلغل، نفوذ، بُنية المجتمع الفلسطيني.

The penetration of British influence into Palestine (1840-1914) and "its social effects"

MRAM RUSHDI ABU MOKH

Abstract: At the beginning of the nineteenth century, European countries' competition to expand their influence in Palestine intensified, and this competition doubled with the emergence of what was known as the Eastern Question, in which European countries sought to divide the properties of the Ottoman Empire due to its political and military weakness. Britain had ambitions in the region, most notably the settlement of Jews in Palestine. Until its settlement project began by penetrating into Palestine and extending its influence through settlement projects, their implementation, and their impact on social structures, in the late Ottoman rule, when Britain sought to dismantle the structure of Palestinian society, which was subject to the authority of the Ottoman state, and which was administratively divided into three sanjaks*: Jerusalem , Nablus, Akka, through its incursion into it to be consistent with its interests and ambitions in imposing a new capitalist and social model through which the original structure of society could be dismantled, in preparation for extending its influence and political, economic and administrative dominance

Keywords: penetration, infrastructure, structure of Palestinian society.

مقدمة

شهدت فلسطين إبّان الحكم العثماني في عهد السلطان عبد الحميد الثاني تحولات كبيرة من حيث الأوضاع الاجتماعية التي ساد فيها الأمن وتحسنت الأحوال المعيشية من تنقلات ومواصلات وخدمات البريد وغيرها من البنية التحتية، إضافة الى التحول الكبير في الجانب الاقتصادي المتمثل في القطاع الزراعي، إذا كانت الحمضيات أبرز الموارد بعد القمح من حيث التصدير من فلسطين الى دول العالم، ومثل ذلك القطاع الصناعي، وغيرها من الموارد الطبيعية،

*__سنجقية:__ لفظ تركي يعني لواء، او علم، او راية، وفي العهد العثماني أصبح له مدلول اداري يدل على منطقة بعينها باعتبار حكام المناطق يتخذون أعلاماً أو رايات تميزهم عن بعضهم. زين العابدين، شمس الدين نجم. **معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية**، ط1، القاهرة، 2006م، ص328.

مما يعني أن المستوى المعيشي في المجتمع الفلسطيني في تلك الفترة من الحكم العثماني لفلسطين كان زاخراً منتعشاً وحيوياً.

والحديث عن انتعاش الجانب المعيشي في المجتمع الفلسطيني وتطوره يبين مدى انعكاسه على تحسن الخدمات الصحية والتعليمية ومؤثراً في الأوضاع الاجتماعية بصورة إيجابية تتمثل بارتفاع عدد السكان كما هو الحال قي مدن يافا وحيفا ونابلس، مما جعل فلسطين محل أطماع الدول الأوروبية وعلى رأسها بريطانيا، مستغلة الامتيازات العثمانية التي بدأت بضخ البضائع الأوروبية وزيادة الحركة التجارية في البلاد الشّامية، اضافة الى افتتاح القنصليات وإرسال القناصل الذين من خلالهم قوي التغلغل الديني والاقتصادي خاصّة، وهنا برزت بريطانيا كأكبر مستفيد من هذه الأحوال في تلك الفترة انطلاقاً من البعثات الاستكشافية، والحماية الثقافية والدينية للأقليات كأحد أساليب التغلغل البريطاني لبسط نفوذه وتحقيق أهدافه، ومن هنا جاءت هذه الدراسة لتجيب عن السؤال:

كيف أثر تغلغل النفوذ البريطاني لفلسطين بين العام 1840- 1914[2]، على الحياة الاجتماعية في المجتمع الفلسطيني؟

وتفرع عن مشكلة الدراسة مجموعة من التساؤلات الفرعية، أبرزها:

1. ما هي الخصائص التي تميز بها المجتمع الفلسطيني قبل التغلغل البريطاني لفلسطين؟
2. هل تأثر المجتمع الفلسطيني بالنفوذ البريطاني من حيث الأصالة الاجتماعية والثقافية على الأقل؟
3. هل أسهمت التصدعات والصراعات المحلية في المجتمع الفلسطيني إبان الحكم العثماني تسهيل التغلغل البريطاني لفلسطين وتأثيره في المجتمع؟
4. ما دور الامتيازات العثمانية في تغلغل النفوذ البريطاني الى المجتمع الفلسطيني والتأثير به؟

[2] في هذا البحث أناقش أثر النفوذ البريطاني وتغلغله في فلسطين في الفترة المحصورة ما بين 1840-1918 وهي فترة الواقعة ما بين أواخر الحكم العثماني وقبيل الانتداب البريطاني، وكيف كان لهذا التغلغل من نفوذ واثار اجتماعية؛ سياسية واقتصادية، وثقافية ودينية...في المجتمع الفلسطيني.

هذا وتنبع أهمية الدراسة من أهمية الموضوع المطروح والذي لا يزال المجتمع الفلسطيني يعاني تبعات وويلات النفوذ البريطاني وتغلغله في فلسطين والذي مهّد بعد ذلك للاحتلال البريطاني الذي مّكن اليهود من الأراضي الفلسطينية عبر قنصليته في القدس، كما وتكمن أهمية الموضوع في الارهاصات التي سبقت الانتداب البريطاني وذلك من خلال التغلغل في المجتمع الفلسطيني في أواخر الحكم العثماني، والتأثير في الجوانب الاجتماعية والتدخل في شؤون الحياة العامة، وانعكاس النفوذ البريطاني على الجوانب السياسية، والاقتصادية، والدينية، والثقافية...، واثرها في حركة المجتمع الفلسطيني في تلك الحقبة.

اتبعت الباحثة المنهج التّاريخي الوصفي التّحليلي اعتماداً على المراجع التّاريخية لجمع المعلومات، والتي تصف موضوع البحث وصفاً دقيقاً، ثم التحليل بربط المعلومات وبيان الصلة بين النفوذ البريطاني لفلسطين وأثار هذا التغلغل على المجتمع الفلسطيني في السنوات 1840-1918، في الواقع الفلسطيني، ثم اتباع المنهج العلمي في توثيق المعلومة من مظانّها.

الفصل الأول: أحوال المجتمع الفلسطيني في أواخر العهد العثماني

المحور الأوّل: التّركيب الاجتماعي لسكان فلسطين

الحديث عن المجتمع الفلسطيني في أواخر العهد العثماني يدفعنا الى الحديث عن تقسيم المجتمع الفلسطيني الى مدن وأرياف، وتناول العدد السكاني وتقسيم الناس بين المدن والحضر والفرق بينهما من جميع المناحي الاجتماعية.

1. الفلسطينيون: وهم على ثلاثة أقسام:

الفلاحون: وهم تلك الفئة من الناس التي كرست عملها في زراعة الأراضي، حيث بلغ مجموع الأراضي المزروعة عام 1895م 2,200,000 دونم، موزعة على أربع مناطق هي القدس، يافا، غزة، والخليل، وبلغت الأراضي المزروعة في كل من يافا وغزة 900,000 دونم، بينما بلغت المساحة المزروعة في منطقتي غزة والخليل 200,000 دونم في كل منهما (العامري، 1974م، ص14).

ويشير تقرير عثماني الى انه في عام 1909م كان في مناطق القدس، ونابلس وعكا 16,910 عائلة تعمل بالزراعة، تملك 785,000 دونم، أي بمعدل 46 دونما للعائلة الواحدة، وكانت 67% من عائلات منطقة القدس، و63% من عائلات منطقة نابلس تملك أقل من 50 دونما للعائلة (العامري، 1974م، ص95).

كانت أملاك الفلاحين من الأراضي متفرقة في جميع أنحاء القرية، وكان مختار القرية على معرفة بتلك الممتلكات، كما أن نظام الميراث كان يفتت الأرض الى أقسام صغيرة مما كان يقلل من قيمة الملكية، كما كانت معظم أراضي القرى في فلسطين مشاعاً، مشتركة بين المزارعين وأهل القرية ، أو مشتركاً بين أهالي القرية أو أفراد عشيرة من عشائرها، توزع كل بداية سنة على أهالي القرية أو العشيرة أو القرى المجاورة بالأسهم والقراريط بمعرفة مخاتير القرى ووجهائها، وبالنسبة للنساء الفلاحات فإنهن يتجولن بحرية ووجوههن سافرة، وكان تعدادهن هو الأكثر بين السكان الفلسطينيين في تلك الفترة (اضهير، مجلد21، عدد9، 2020م/ روجر، 2016، ج1، ص585).

هناك أنواع أخرى لملكية الأراضي لاستعمالها وفلاحتها في فلسطين والتي نص عليها قانون الأراضي العثماني لعام 1858م كحق التملك الخاص وهذا مقصور على الأراضي المبنية والحدائق والبساتين في المدن والبلدات، الميري*[3]، المحلول، الموات، الأراضي والممتلكات العامة واراضي الدولة (روجر، 2016م، ج1، ص586 / أكرم مسعود وأخرون،2013م، ع14، ج13، ص120)

البدو: أي الذين يربون الأغنام، ومع انه ينظر للبدو بأنهم رحالة عادة، الا ان بدو فلسطين لم يكنوا في حركة مستمرة، فترحالهم يتركز على البحث عن المراعي، وقد يرحلوا لظروف طارئة، وقد عاشت القبائل البدوية في فلسطين لفترات طويلة في نفس الإقليم فترة العهد العثماني، وقدر عددهم عام 1922م ب 103331 بدوياً ينتمون الى خمس قبائل رئيسية، وأما من الناحية

[3] **الميري:** حق ملكية هذا النوع من الأراضي محصور بالدولة ولكن الأفراد لهم حق الوراثة والتصرف، وحق استثمار هذه الأراضي مشروط بدفع الضرائب في أوقاتها المحددة، وكذلك رفع رسوم تسجيل لسند التملك (الطابو).

الاجتماعية فقد حافظ البدو على تقاليدهم وسماتهم الاجتماعية للحياة القبلية، فانتظموا في عشائر يرأسها شيخ العشيرة، وكل عضو في القبيلة يعتبر نفسه مسؤولا عن أخيه فيما يتعلق بأمور الشرف وال اخذ(اضهير، 2022، ص4)

العمال والحرفيون: عند الحديث عن العمال لا نتكلم في العهد العثماني لا نتحدث عن طبقة عمالية ذات خصائص وامتيازات وأوضاع اجتماعية خاصة مستقلة، انما الحديث عن العمل في الجانب الصناعي هو جزء من العمل الزراعي أيضا ، تقوم فيه العلاقة بين العمال ورب العمل على أساس عائلي، والغاية من هذه الصناعات والمزروعات بالدرجة الأولى سد الاحتياجات العائلة أو القرية باستثناء صناعة الصابون فقد كانت تصدر الى البلدان العربية المجاورة، كما تميزت الحرف الصناعية في المجتمع الفلسطيني قبل الانتداب البريطاني على فلسطين بأنها كانت بدائية مقارنة مع القطاع الزراعي (اضهير، مجلد 21، ع9، 2020، ص4-6)

2- اليهود:

يقسم اليهود الى قسمين: قسم هم رعايا الدولة العثمانية والذين لك يكن يسمح لدولة أجنبية أن تتدخل في شؤونهم، والثاني هم غير المتمتعين بالمواطنة العثمانية وامتدت اليهم الحماية البريطانية فيما بعد عبر نفوذها وذلك من خلال نقل فكرة الصهيونية من النطاق النظري الى النطاق العملي لتوطين اليهود في فلسطين بعد تزعم هرتزل الحركة الصهيونية وعقد مؤتمر بازل (1897م)، الذي توجه بعد عدة محاولات للحصول على موطن لهم في فلسطين، الى بريطانيا لتحقيق الهدف، ومنذ ذلك الحين تحول اليهود الى عملاء سريين في أوروبا لصالح المشروع الصهيوني، حرصين في خطواتهم على عدم إثارة أي جدل يمكن ان يثير مخاوف السلطات العثمانية آنذاك التي كانت فلسطين ولاية تابعة لها، ومن هنا يمكن معرفة دور بريطانيا والحاحها لتأسيس قنصلية لها في القدس، ثم تأسيس اسقفية انجيكانية في القدس، وذلك بإجراء مفاوضات مع محمد علي والسلطان العثماني موضحة سبب ذلك ان القدس من الأماكن المقدسة التي تستقبل الزوار البريطانيين، كما ان حاجة الطائفة البروتستانتية الى الدعم والحماية دفع بريطانيا الى تدعيم نفوذها باستخدام هذا الاسلوب (الوعري، 2007م، ص100).

المحور الثّاني: التّكوين الزّراعي والصّناعات الحرفيّة والتّجاريّة

أولاً: الجانب الزراعيّ

الحديث عن التطور الزراعي في فلسطين من الركاز المهمة في الدلالة على الجانب الاجتماعي للمجتمع، فقد شهد المجتمع الفلسطيني في أواخر العهد العثماني تطورات اقتصادية واجتماعية بسبب ما اتخذته السلطات العثمانية من إجراءات اقتصادية طالت مختلف جوانب الحياة، وأبرزها التنظيمات التي طالت الأراضي من تسجيل وتنظيم وضرائب، فقد أدى امتناع بعض متوسطي الملاك وصغارهم إضافة الى قبائل البدو من تسجيل أراضيهم بأسمائهم الى استيلاء الحكومة العثمانية على تلك الأراضي وبيعها في فلسطين، وكانت هذه الأسر تملك في أواخر العهد العثماني قرى بأكملها، مثل عائلة عبد الهادي كانت تملك 17 قرية، والجيوسي 24 قرية، والبرغوثي 39 قرية. وقدرت أملاك عائلة عبد الهادي في نابلس وجنين بنحو 600000 دونم، وعائلة الحسيني بنحو 500,000 ودنم (شبيب، 1999م، ص21).

لقد ساعدت قوانين الأراضي العثمانية في تشكيل الملكيات العقارية الكبيرة في فلسطين وساهمت في تركيز الأراضي في أيدي عدد قليل من مالكي الأرض، مما أدى بعد ذلك الى ظهور طبقة جديدة وهي طبقة مالكي سندات طابو، من تجار وشيوخ عشائر ووجهاء المدن، لذلك أنقسم المجتمع الزراعي التقليدي في فلسطين في أواخر العهد العثماني الى الشرائح الاجتماعية التالية: مستأجرو الأراضي الكبار، والمقاولون الذين يتصرفون في الأرض كمستأجري أرض الدولة، الفلاحون المزارعون، الفلاحون المعدومون من الأرض(حراثون) (شبيب، 1999م، ص22-23).

كان معظم سكان فلسطين يعملون في الزراعة والبستنة وتربية الدواجن والمواشي، وكان ذلك كله يتوقف على كمية الامطار المتساقطة وعلى توفر المياه، وكانت معظم المحاصيل في الشتوية من أبرزها القمح والشعير وأما الصيفية فكان من أشهرها الذرة البيضاء والسمسم والفاصولياء والكرسنة والقطن والبطيخ، وكان الفلاحون يزرعون الخضروات والفواكه في البساتين

المجاورة للمدن والبلدات والقرى، إضافة الى اللوز والزيتون الذي يعتبر الغلة الرئيسية (روجر، 2016م، ج1/ ص584).

ويمكن القول ان التوسع الزراعي في فلسطين خلال الفترة 1880-1914 وزيادة رقعة الأراضي المزروعة نتيجة اندفاع الفلاحين الى المناطق في السهول الشمالية واقبال البدو والفلاحين القاطنين في التلال على العمل فيها وحراثتها، من جهة أخرى قامت زراعة الأراضي على امتداد الساحل وفي الجليل الأدنى عن طريق استخدام الايدي العاملة الفلسطينية والمصرية وقبائل الغوارنه حول بحيرة الحولة في الشمال، بالزيتون والحمضيات والعنب والخضار حتى ارتفعت الصادرات. (روجر، 2016، ج1/ ص575).

ثانياً: الصّناعات الحرفيّة والتّجارة

معظم القرى الفلسطينية كانت تنتج الملابس وأدوات الطبخ والسجاد والطوب ومواد أخرى كاكتفاء ذاتي، فظهر أصحاب الصناعات الحرفية والمصانع والمشاغل في البلدات والمدن كالخليل مثلا التي اشتهرت بإنتاج الزجاج والمنتوجات الصوفية والجبنة، بينما اشتهرت القدس وبيت لحم في انتاج العلب التذكارية والمسابح التي كانت تباع للحجاج المسيحين، في حين اشتهت غزة بالفخاريات، كذلك اشتهرت نابلس ويافا وغزة بإنتاج الصابون المصنوع من زيت الزيتون والمنسوجات القطنية (روجر، 2016م، ج1/ ص575).

مما تقدم نلحظ نشاط الجانب الصناعي في تصدير المنتوجات شأنه شأن المنتجات الزراعية على المستوى الداخلي والدولي، وكانت تفرض على معظم الصادرات والواردات القادمة الى موانئ فلسطين أو الى الأسواق المحلية، حيث بلغت نسبة الصادرات والواردات الى بلدان خارج الإمبراطورية العثمانية 3%، بينما السلع القادمة الى داخل الإمبراطورية العثمانية تصل الى 8%، وهذه دلالات واضحة على قوة ونشاط وتطور الإنتاج المحلي في المجتمع الفلسطيني (روجر، 2016م، ج1/ ص555، اضهير، 2020، مجلد21، ع9، ص2) .

كما شهد المجتمع الفلسطيني نشاط في التجارة البحرية من خلال ميناء عكا ويافا، وبعضها كان يرسو في غزة، وفي حيفا التي أعاد احمد باشا الجزار إسكانها في أواخر القرن الثامن عشر

(روجر، 2016م، ج1/ ص556)، واستمرت حيفا في التطور حتى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وكان بها مرسى مناسب للبواخر، وأصبحت الميناء الرئيسي لشمال فلسطين وحوران، وفي عام 1905 جعلتها الحكومة العثمانية واحدة من المحطات المركزية لخط سكة حديد الحجاز .(yazbakK. 1997.b241)

المحور الثّالث: التّعليم في المجتمع الفلسطيني

يمكن وصف التّعليم في العهد العثماني انه يكاد يكون دينياً، حيث المعاهد الدينية يتعلم فيها الصغار والكبار، وكان بعضها ملحق بالمساجد، وبعضها مستقلاً، كان أسلوب التعليم قديما يعتمد على العلوم النقلية فقط حتى بدأ الاحتكاك بالدول الأوربية في منتصف القرن الثامن عشر وأول القرن التاسع عشر، حيث تفتحت انظار المفكرين الى ضرورة مواكبة حضارة العصر، كما ان الهزائم العسكرية التي منيت بها الدولة العثمانية امام الجيوش الأوروبية جعلتها تفكر في أسباب هذه الهزائم وارجعته الى اختلاف نظمها وتغير وسائلها عما في الدول الأوربية مما حدا بهم لاقتباس نظم ووسائل تسهم في تعلم الفنون العسكرية، كعلوم الرياضة والطبيعة والتاريخ والجغرافية فأنشأت المدرسة العسكرية فالرشيدية، ويظهر لنا مما تقدم ان المعاهد التعليمية القائمة في الدول العربية ومنها فلسطين في أواخر الدولة العثمانية كانت غاية في التنوع والاختلاف، مدراس تعلم باللغة التركية ولا تبالي باللغة العربية، ومدارس طائفية ومذهبية تعلم العربية وتتأثر بالمدارس الأجنبية التي تشاكلها في الدين والمذهب.، ومن المدارس التي أنشئت عام 1851م مدرسة صهيون الداخلية للصبيان في القدس مدارس ثلاثة لجمعية المرسلين الكنسية ، ومدارس نابلس الثلاثة وجميعها كانت للمسلمين اشهرها الرشيدية، وكذلك مدرسة في عكا ، ومدارس حيفا التي بلغت العشرون، إضافة الى المدارس في صفد (الماضي، 1998م، ص42-43).

المحور الرّابع: المكانة الاجتماعية وأنماط الزواج

كانت المكانة الاجتماعية المرموقة في المجتمع الفلسطيني ذات أهمية وجوهرية في نفس الوقت، كرأس المال المادي والثقافي عنصراً مهما في توشيج العلاقات بين أفراد المجتمع، وكان التجار يحرصون على تنمية رأس المال من خلال الحرص على تنمية المكانة الدينية، سواء من خلال

الثقافة، ام مصاهرة عائلة علماء دين معروفة، أم الخدمة في المسجد، او التصدق على المؤسسات الدينية، والانخراط في بعض الطرق الصوفية، مما يعني أن العلاقة بين الدين والتجارة كانت عميقة التي وطدت سلوك الأشخاص بعضهم ببعض التي بنيت على الاحترام والأمانة والتقوى والموثوقية، وعائلة ال عرفات المشهورة في تجارة الاقمشة نموذجاً لذلك، تجاراً وعلماء دين (دوماني، 1998م، ص75).

أما الزواج والمصاهرات كان النمط السائد فيها في تلك الحقبة من القرن الثامن عشر مقتصر داخل العائلة، وهذا مما يحمي ممتلكات العائلة وثروتها من التفتت، وامتد الى القرن التاسع عشر كما يظهر في وثائق المحكمة الشرعية، وهناك عدد من العائلات التي خرجت عن هذا النسق الاجتماعي وتزوجوا من خارج العائلة لكن هذا الاتجاه كان أضعف من الأول (دوماني، 1998م، ص86).

الفصل الثّاني: الأثار السّياسية والاقتصادية للتغلغل البريطاني في فلسطين أواخر العهد العثماني

المحور الأوّل: السّياق التاريخي للتغلغل البريطاني في فلسطين في أواخر العهد العثماني

ظهر أثر النفوذ والتغلغل الغربي وتعاظم حضوره في فلسطين لا سيما النفوذ البريطاني وذلك عشية إبرام تركيا العثمانية اتفاقيات مع القوى الأوروبية العظمى كاتفاقيات تجارية في القرن السادس عشر والتي تحولت لاحقا إلى الاستسلام للنفوذ الغربي عامة وبريطانيا خاصة الذي مكن هذه الدول من التغلغل والتسلل تدريجيّاً الى الإمبراطورية العثمانية إلى فلسطين، وكان من الاثار التي تركتها هذه الأحداث على المجتمع الفلسطيني بانكشافه البطيء على أنماط الحياة والأفكار الغربية والنفوذ البريطاني والأوروبي واضحة المعالم، فاتجه الفلسطينيون الأكثر ثراء في تلك الحقبة الى محاكاة الغرب والأخذ بالابتكارات الغربية المستوردة في حياتهم. (ماري روجرز، 2017م، رحلتها بين 1855-1859م، ص4)

تلك الامتيازات التي حصلت عليها الدول الأوروبية من الإمبراطورية العثمانية خلال القرن الثامن والتاسع عشر ومما سببه من تقاطعات وتداخلات بين الدول الأوروبية أدت الى زيادة حدة

التنافس والصراع الاستعماري والتغلغل لتقسيم الممتلكات العثمانية التي أخذت قوتها تتراجع وتضمحل بسبب الضربات العسكرية التي احلتها أوروبا بها واضطرارها الى توقيع اتفاقيات ومعاهدات مذلّة مع بعض هذه الدول.

لذلك كان أول تغلغل للنفوذ البريطاني في فلسطين من خلال قنصلها في القدس ابتداء من العام 1839م، وذلك بإرسال السيد وليم يونج نائب قنصل في مدينة القدس، والذي بدأ يلعب دورا مهما وخطيراً في مساعدة اليهود وحمايتهم وتسهيل دخولهم الى فلسطين بجوازات بريطانية باعتبارهم رعايا بريطانيين، إضافة الى إقامة أسقفية انجيلية في لقدس عام 1847م، ومن هنا بدأ التغلغل البريطاني في بسط نفوذه بين عام 1840- 1918م، وذلك من خلال التدخل في الحياة اليومية والمعيشية للمجتمع الفلسطيني (الوعري، 2007م، ص17)، وهذا الفصل يتناول أثر هذا التغلغل البريطاني في المجتمع الفلسطيني وبسط نفوذه تأثيره على حركة المجتمع الفلسطيني من جوانب عدة.

المحور الثّاني: المؤثر السياسيّ

تعتبر فلسطين وجهة بريطانيا المنشودة فكان لا بد من إيجاد عوامل مهمة ومؤثرة تتغلغل من خلالها الى المجتمع الفلسطيني وتبسط نفوذها، وكان من هذه العوامل هو التّصريح السياسي الذي جاء به وزير خارجية بريطانيا أو ما يسمى "وعد بلفور" والذي تضمن الوعد بإنشاء وطن قومي لليهود ثم المحافظة على حقوق أهل البلاد الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وهذه الالتزامات مختلفة في مضمونها، لأن إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين وتسهيل الهجرة أمامهم وانتقال الأراضي اليهم من شأنه أن يلحق ضرراً كبيراً بأهل البلاد الفلسطينيين العرب الأصليين، وهذا الذي سعى له الاحتلال البريطاني قبيل الانتداب من خلال التغلغل في المجتمع الفلسطيني باسم حمية الأقليات الدينية ومنها اليهود (منسي، 1970م، 102-105)

هذا التغلغل البريطاني الى المجتمع الفلسطيني تحول من مجرد تصريحات ووعود الى تطبيق عملي من خلال عقد مؤتمر الحركة الصهيونية بقيادة تيودور هرتزل (Theodore Herzl) في بازل عام 1897م، الذي سعى فيه الى البحث عن متعهد من احدى الدول الكبرى بإقامة وطن

قومي لليهود، الا ان جميع محاولاتهم بائت بالفشل، بينما المفاوضات بين بلفور والصهيونية قائمة على صياغة قيام دولة يهودية في فلسطين حتى صدور التصريح عام 1917، وقبل هذا التاريخ كانت السياسة البريطانية تمهد لذلك منتهزة الامتيازات العثمانية كما تقدم في هذا البحث لتهجير اليهود الى فلسطين بجوازات بريطانية، وبعضها كان بصورة غير شرعية (تهريب) وذلك باجتناب مراكز المراقبة على الحدود، أو بهجرة شرعية لكن المسافر يبقى في البلاد بعد انتهاء اقامته ويثبتها عن طريق الزواج من اليهود المقيمين هناك (الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الأول، 1984م، ص491).

هذه القرارات والاتفاقيات كان لها دور كبير في تفكيك بنية المجتمع الفلسطيني ديموغرافياً وسياسياً واجتماعياً، وذلك بسبب القرارات الظالمة المجحفة بحق العرب وذات الشروط القاسية على تركيا بتقسيم ممتلكاتها في الوطن العربي بين دول التحالف الأوروبي ومنها بريطانيا تمهيدا لانتدابها في فلسطين فيما بعد، حيث شرعت بريطانيا قبيل الحرب العالمية الأولى 1905 في مساعدة اليهود للهجرة وتهويد فلسطين فيما بعد في مختلف المجالات الإدارية والثّقافية والاقتصادية والسكانية من خلال القنصلية البريطانية في القدس التي افتتحتها بريطانيا في الفترة العثمانية عام 1838م (اضهير، 2020م، ص8).

كان للقنصلية البريطانية في القدس برعاية القنصل "فن" عام 1846 دور في رعاية اليهود المتنصرين وغير المتنصرين ومن هنا كانت سياسة القنصلية تكريس الوجود اليهودي في القدس وفلسطين (شوليش، ص63 / الوعري، 2007م، ص139).

المحور الثّالث: المؤثر الاقتصادي

سبق الحديث في الفصل السابق عن تطور الاقتصاد في المجتمع الفلسطيني والثروات الزراعية والحيوانية إضافة الى التّجارة والحرف الصناعية في أواخر العهد العثماني، والتي بلغت ذروتها حين أصبحت تصدر هذه الثروات الى خارج البلد، كما تستورد بضائع وسلع من هذه الدول شأنها شأن باقي الألوية والبلاد العثمانية حينئذ مما جعل من هذه القوة الاقتصادية محل نظر واطماع الدول الأوروبية وعلى راسها بريطانيا.

لكن الحال لم يبق كما هو فتبدلت الأحوال بعد تغلغل الاستيطان البريطاني على فلسطين أواخر العهد العثماني، ونشطت الصناعة نشاطاً ملحوظاً، وتركزت بأيدي عدد قليل من أصحاب رؤوس الأموال لأنها اتجهت نحو الاحتكار وتركيز الثروة، وقد أصبحت فلسطين مركزاً لتوظيف الأموال الأجنبية (الماضي، ص22-23).

كان نصيب العرب من هذه الصناعات قليلاً حيث كانت تتجه السياسة البريطانية الى دعم الصناعات اليهودية عن طريق تهيئة الظروف الصعبة امام الصناعات العربية، حيث كانت التجارة في ذلك الوقت مقيدة بسلاسل الامتيازات الأجنبية ومغلولة بأغلال المذاهب الدينية التي كانت مدعاة للنفوذ الأجنبي عموما والبريطاني خصوصاً للتدخل في شؤون الدولة العثمانية، وكان أصحاب المذاهب الدينية يتمتعون بامتيازات كثيرة ويعفون من دفع الضرائب في حين أن المتوطن العثماني تقع على كاهله ميزانية الدولة العثمانية كلها، ويصور عالم الآثار لورتيت مشهداً بنفسه عام 1880م كيف ان احد المشرفين على أملاك ال سرسق قرب الناصرة يهدم بمساعدة الجند بيت أحد الفلاحين لأنه لم يستطع دفع الديون الى صاحب الأرض والقيت اسرته بالعراء، وبسبب هذا الوضع من الفقر الزائد إضافة الى اضطهاد الفلاحين أدى الى العجز عن السيطرة على اقتصاد البلاد بشكل عام وفلسطين بشكل خاص لكثرة المذاهب الدينية والنفوذ الأجنبية المركزة فيها لموقعها الجغرافي الاستراتيجي والديني الذي أفادها طمعاً من دول الاستعمار وبسط نفوذها من خلال تغلغلها في المجتمع الفلسطيني والهيمنة على مقدراته فيما بعد (الماضي، 22-23).

الفصل الثالث: الأثار الاجتماعيّة للتغلغل البريطاني في فلسطين في أواخر العهد العثماني

المحور الأوّل: المؤثر التّعليمي

التعليم ركيزة من أهم الركائز الذي يبني عليها كل مجتمع تطوره وحضارته، والتعليم في فلسطين في فترة السلطنة العثمانية وقبل التغلغل البريطاني مقتصر على الكتاتيب حتى عام1914م، لذلك لم يزد عدد مدارس فلسطين عن 95 مدرسة ما بين ابتدائية ورشيدية، وعندما فكرت السلطة العثمانية في أواخر عهدها بتتريك التعليم والثقافة في الأقاليم العربية والذي أدى في دفع المزيد من سكان المدن الراغبين في تعليم أبنائهم وخصوصا المسيحين منهم الذين توجهوا الى

الارساليات الأجنبية التي قام المبشرون الغربيون بإنشائها في التجمعات المسيحية الفلسطينية، فكانت هذه الارساليات التبشيرية على اختلاف مذاهبها وسيلة للتغلغل البريطاني لبسط نفوذه وسيطرته على الدولة العثمانية، فان التغلغل الديني والثقافي للمسيحيين الأرثوذوكس كانت الأداة لبسط النفوذ والتأثير على البنية الثقافية والتعليمية في المجتمع الفلسطيني، وتمثل ذلك بافتتاح عدد من المدارس الانجيلية في القدس وبيت لحم والناصرة، ومنها أيضا انشاء المدارس الفرنسية التي كانت تجتذب ليها أولاد المسلمين ايضاً، الامر الذي ترك اثاراً واضحة على مسار التعليم والثقافة في المجتمع الفلسطيني، ومن ذلك نشر اللغة الأجنبية في البلاد وبسط نفوذها على الجماعات (شبيب، 1988م، ص40).

المحور الثّاني: المؤثر الدّيني

يعتبر الجانب الدّيني من أبرز الدوافع لتغلغل البريطانيين في فلسطين " الأرض المقدسة " حيث انتشرت دعوة بصورة مكشوفة وبصوت عالٍ الى "الحملة الصليبية السلميّة أو الامتلاك الفعلي للأرض المقدسة"، وباتت الموانئ الفلسطينية تعج بالحجاج والمسافرين الى البلاد ففي أيام الأعياد كانت أزقة القدس تعج بالحجاج ليكون عددهم أكبر من عدد السكان الأصليين (شولش، 2009م، ص115)، كان لفلسطين خصوصية لدى المستعمرين البريطانيين المتدينين، لما فيها من تحقيق كمالهم الإيماني، ولهذا شجعت وبقوة النشاطات التبشيرية والخيريّة والثقافية.

جعلت بريطانيا من نفسها حاميا للأقليات الدينية المسيحية في فلسطين وباتت تطالب بحقوقهم الدينية والتثقيفية، ليكون لها ما أرادت في عام 1831 وهي السنة التي حلّ فيها أول قنصل أوروبي في القدس ألا وهو القنصل البريطاني (الوعري، 2007م، ص99-100)، ولا سيّما أن محمد علي باشا سهّل للأوروبيين التغلغل السياسي والديني والثقافي بأن سمح لهم بفتح قنصليات في داخل بلادهم وبتوسيع النشاطات الدينية والتبشيرية والاعتراف بمؤسساتها، فقد شهدت القدس (1840) دخول المزيد من القناصل الأوروبيين وكبار رجال الدين وزاد اهتمامهم " بالأرض المقدسة"، حيث كان لها نفوذ في حماية الأقليات تغير الإسلامية في الدولة العثمانية (شولش، ص1993م، ص81-85).

تعد البعثات الاستكشافية والتنصيرية، أحد الأساليب التي لجأت إليها الدول الاستعمارية للسيطرة على الوطن العربي عامة، لاسيما فلسطين، وإن استعراض ممارسات تلك البعثات تبدو في الظاهر علمية محضة، ولكن جوهر مهمتها تمثل في وضع أرضية تاريخية مزعومة لتحويل فلسطين من وطن الفلسطينيين إلى أرض التوراة، ومن اهم تلك المؤسسات صندوق استكشاف فلسطين الذي أسسته بريطانيا عام ،1865م وضم مجموعة من الاكاديميين البريطانيين المتميزين ورجال الدين، الذين أعربوا عن دعمهم وتعاطفهم مع طروحات الصهيونيين المسيحيين وأما الهدف من أنشاء ذلك الصندوق، فهو العمل على تحقيق وصف لفلسطين، والبحث الدقيق المنظم في الآثار والطوبوغرافيا والجيولوجيا والجغرافيا الطبيعية والتاريخ الطبيعي وعادات وتقاليد فلسطين لغاية التوضيح التوراتي (الصائغ، ع5، 2012م).

اقامت هذه البعثات التبشيرية مراكز ثقافية ومدارس تعليمية وتنصيرية وكنائس وابرشيات في أماكن عديدة من فلسطين، بالإضافة إلى ترسيخ الرؤية المركزية التي سادت في الأوساط الأوروبية بشأن فلسطين التي صورتها بلداً مهملاً، وانها خالية من السكان، تسكنها أقليات متأخرة، ومهجورة وخربة تنتظر إحياءها، والعمل على تحويلها إلى أرض التوراة، كما قامت بتوجيه انظار اليهود إلى فلسطين عن طريق تزويدهم بالمعلومات الجغرافية والتاريخية والسياسية التي كانوا يحتاجونها، فلولا تلك المعلومات لبقيت فلسطين أرضاً مجهولة بالنسبة للكثيرين من اليهود، ومثل ذلك لبنة أولى لفكرة طرد الفلسطينيين، لهذا أخذت بريطانيا على عاتقها حماية اليهود وطالبت بتوطينهم في فلسطين، وإنشاء كيان لهم فيها.

ومما تجدر الإشارة إليه، أنه منذ بداية التنافس الاستعماري على فلسطين، امتزجت الحماية الدينية والثقافية للأقليات، ونشاطات البعثات التنصيرية، ودور القنصليات الأجنبية، بالادعاءات والمطالب السياسية الخاصة بتوطين اليهود في فلسطين، وقد زعمت بريطانيا وغيرها من الدول الأوروبية أن فلسطين هي (الوطن الحقيقي لليهود الذي أعطاه الله لهم). (جبر، وعلاوي، 2005م)

المحور الثّالث: أنماط لباس النّساء والرّجال

كان لباس المرأة في أواخر العهد العثماني يتألف من الفستان والجلباب الذي يغطي جسم المرأة حتى أخمص قدميها، وكانت كبيرات السن من النساء يرتدين القطنية الفضفاضة داخل البيوت خاصة في فصل الصيف، ويختلف الحال عند النساء من ميسورات الحال اللواتي كن يرتدين المعاطف ذات الفراء في فصل الشتاء، كما حرصت النساء العربيات على لبس الحجاب على وجوههن.

تلك الصورة التي تصف لباس المرأة في المجتمع الفلسطيني تأثرت مع بداية النفوذ البريطاني وتغلغله في المجتمع الفلسطيني حتى صارت المتعلمات منهن يرتدين الزي الأوروبي، وترك قسم من النساء الحجاب وسرن سافرات، وبعضهن استبدله بغطاء رأس فقط (ياغي، عدد6، 2008م).

أما لباس الرجال تميزت كل منطقة من مناطق فلسطين بزيها الخاص، فالرجال يلبسون القنابيز، او الدّمايات والسراويل ويضعون على رؤوسهم طرابيش أو الشملة، والفقراء يلبسون التلاوية، وهي لفافة قماش عادي توضع على الراس.

للتغلغل البريطاني ونفوذه الى المجتمع الفلسطيني بدأ يظهر جلياً أثر ذلك من خلال غزو الملابس فتغيرت أشكالها وأنماطها المختلفة، فاستبدل الطربوش بالكوفية والعقال كما استبدلت الدماية والسروال بالجاكيت والبنطلون، وكان الموسرون يلبسون معطفاً مبطنًا بالفراء في الشتاء وعباءة من الحرير في الصيف، بينما العوام من سكان المدن العربية يلبسون المعطف البلدي والدماية القطنية أو الحريرية (ياغي، عدد6، 2008م).

الخاتمة

المؤثرات الاجتماعية التي سببها النفوذ البريطاني في تغلغله للمجتمع الفلسطيني أواخر العهد العثماني ظهر وتعاظم حضورها وأثرها بسبب الامتيازات العثمانية وإبرام الاتفاقيات التجارية التي تعتبر من أهم العوامل لبسط نفوذ بريطانيا في فلسطين، والتي تحولت لاحقا إلى الاستسلام للنفوذ الغربي عامة وبريطانيا خاصة، والذي مكنّ من التغلغل والتسلل تدريجيّاً الى الإمبراطورية العثمانية إلى فلسطين في أواخر حكمها، وكان من الاثار التي تركتها هذه الأحداث على المجتمع الفلسطيني انكشافه على أنماط الحياة والأفكار الغربية والنفوذ البريطاني واضحة المعالم، وذلك

من خلال الارساليات الأجنبية التبشيرية الدينية والثقافية وافتتاح المدارس للمسيحين الأرثوذوكس والتي اثرت على البنية التعليمية للمجتمع الفلسطيني ونشر اللغة الاجنبية في البلاد، كما أثر ذلك في الجانب الديمغرافي من خلال استجلاب اليهود وتوطينهم، وتحويل فلسطين الى أرض التوراة "الأرض المقدسة" من خلال الأنشطة السياسية عبر القنصلية البريطانية في القدس، في مقابل فكرة طرد الفلسطينيين والتضييق عليهم، وليس فحسب بل توسع النفوذ البريطاني ليصل التأثير في الحياة الأسرية وأنماط اللباس عند الرجال والنساء أيضاً، كما أن للتحول الاقتصادي المتمثل بالقطاع الزراعي والصناعي والحرفيات الحظّ الأكبر من التأثير في المجتمع الفلسطيني، وذلك من خلال دعم بريطانيا الصناعات اليهودية عن طريق تهيئة الظروف الصعبة امام الصناعات العربية وذلك بتقييد التجارة بسلاسل واغلال الامتيازات الأجنبية واغلال المذاهب الدينية بإعفائهم من الضرائب لترتكز الصناعات والتجارة بعد ذلك بأيدي عدد قليل من أصحاب رؤوس الأموال باحتكار وتركيز الثروة لتكون فلسطين مركزاً لتوظيف الأموال الأجنبية.

كل هذه التقاطعات والتداخلات والتّدخلات للنفوذ البريطاني كانت سبباً في تفكيك بنية المجتمع الفلسطيني ديموغرافياً وسياسياً واجتماعياً واقتصاديا وثقافياً وزراعيًا..، وما زال الشعب الفلسطيني يعاني تبعات وعواقب التغلغل البريطاني في أواخر العهد العثماني وبسط نفوذه الى يومنا هذا.

قائمة المراجع:

1- اضهير، زيدان مصطفى. أحوال فلسطين الاجتماعية قبل الانتداب البريطاني 1922-1894م، مجلد 21، عدد9، 2020م.

2- أوين، روجر. تاريخ فلسطين الاقتصادي في القرن التاسع عشر (1800-1918)، الموسوعة الفلسطينية، القسم الخاص، المجلد الأول، 2016م.

3- جبر، بيداء علاوي. مشاريع الاستيطان البريطانية لتوطين اليهود في فلسطين (1831-1881) م، جامعة بغداد: كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية، 2005.

4- دوماني، بشارة، إعادة اكتشاف فلسطين: أهالي جبل نابلس (1700-1900)، ترجمة: حسني زينة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط1- بيروت1998م.

5- روجرز، ماري اليزا، الحياة في بيوت فلسطين (1855-1859)، ترجمة: جمال أبو غيدا، 2017م.

6- زين العابدين، شمس الدين نجم. معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، ط1، القاهرة، 2006م.

7- شبيب، سميح. الأصول الاقتصادية والاجتماعية للحركة السياسية في فلسطين 1920-1948م، منشورات وزارة الثقافة الفلسطينية – القدس، 1999م.

8- الشول، أكرم مسعود. عايدة السيد إبراهيم سليمة، وسلوى إبراهيم محمد العطار. "قوانين الأراضي ودورها في زيادة الملكية اليهودية خلال عهد الانتداب البريطاني. "مجلة البحث العلمي في الآداب ع14، ج3 (2013).

9- شولش، الكزاندر. تحولات جذرية في فلسطين 1836-1882، ترجمة: كامل جميل العسلي، عمان: الأردن، ط2، 1993م، ص 81-85.

10- شولش، الكساندر. وكامل جميل العسلي. مقدمة تاريخية: الاهتمام الأوروبي بفلسطين فتح الأرض المقدسة، المجلة الثقافية، ع 76، (2009).

11- الصائغ، بان غانم احمد. سياسة بريطانيا تجاه النصارى واليهود في الدولة العثمانية (1839-1914م) دراسة تاريخية، جامعة الموصل، مجلة التربية والعلم – المجلد (19)، العدد (5)، لسنة 2012م.

12- العامري، عنان. التطور الزراعي والصناعي في فلسطين، دار الكتاب، بيروت 1974م.

13- الماضي، عيسى. كيف ضاعت فلسطين دراسة للمؤثرات الاقتصادية والثقافية والسياسية في ضياع فلسطين، مكتبة المعلا، الكويت، ط1، 1988م.

14- منسي، محمود حسن صالح. تصريخ بلفور مع قسم خاص عن فلسطين في تقرير بيل الأمريكية، دار الفكر العربي، بيروت، 1970م.

15- الوعري، نائلة. دور القنصليات الأجنبية في الهجرة والاستيطان اليهودي في فلسطين 1840-1914، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2007م.

16- ياغي، إسماعيل أحمد. التطور الاجتماعي والاقتصادي في فلسطين إبان عهد الانتداب البريطاني، جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية، عدد6، 1982م.

17-Mahmoud Yazbak, "Comparing Ottoman Municipalities in Palestine; TheCases of Nablus, Haifa, and Nazareth, 1864-1914, International Journal of Middle East Studies (1997).